السرى الرفاء

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

السرى بن أحمد الكندى الموصلى المعروف بالرفاء من شعراء القرن الرابع الهجرى النابهين .

نشأ فى الموصل رفاء يرفو الثياب ، وقد ذكر هذا فى شعره إذ كتب إليه صديق يسأله عن حاله فأجاب بأبيات منها :

وكانت الإبرة فيما مضى صائنة وجهى وأشعارى
فأصبح الرزق بها ضيقا كأنه من ثقبها جارى

يقول الثعالبى فى يتيمة الدهر :

(ولم يزل السرى فى ضنك من العيش إلى أن خرج إلى حلب واتصل بسيف الدولة واستكثر من المدح له فطلع سعده بعد الأفول ، وبعد سيطه بعد الخمول وحسن موقع شعره عند الأمراء من بنى حمدان ورؤساء الشام والعراق . ولما توفى سيف الدولة ورد السرى بغداد ومدح المهلبى الوزير وغيره من الصدور فارتفق بهم وارتزق معهم وحسنت حاله ، وسار شعره فى الآفاق ، ونظم حاشيتى الشام والعراق ، وسافر كلامه إلى خراسان ، وسائر البلدان) .

فهذا شاعر عاش فى الشام والعراق فى القرن الرابع ، وشهد حلبة الأدب عند الأمير العربى الجواد الأديب سيف الدولة ، واتصل بالوزير الأديب المهلبى فى بغداد . فهو يمثل الشعر العربى فى عصر من أندر عصوره ، وفى أمجد أقطاره . ففى شعره مجال للأديب واسع ، وقد صرف القول فى فنون الشعر المعروفة فى عصره ، ونافس كثيراً من شعراء زمانه . ولا يتسع حديثنا للقول فى تاريخ السرى الرفاء وشعره ، فما كتفى بموضوعين .

الأول عداؤه للأديبين الموصليين الأخوين محمد وعثمان المعروفين باسم الخالديين ، وهجاؤه إياهما بسرقة شعره وشعر غيره وتصريفه القول فى غارتهما على الشعر ، والولوع بذكر هذا فى قصائد مدحه وهجائه . وإن صح ما رواه الثعالبى عنه فقد حملته العداوة على ما لا يجمل بالأدباء . يقول الثعالبى :

(ونابذ الخالديين الموصليين وناصبهما العداوة ، وادعى عليهما سرقة شعره وشعر غيره وجعل يورق وينسخ ديوان شعر أبى الفتح كشاجم — وهو إذ ذاك ريحان أهل الأدب بتلك البلاد ، والسرى فى طريقه يذهب ، وعلى قالبه يضرب — وكان يدس فيما يكتبه من شعره أحسن شعر الخالديين ليزيد فى حجم ما ينسخه ، وينفق سوقه ويتلى سمعه ، ويشنع بذلك على الخالديين وينغص منهما ، ويظهر مصداق قوله فى سرقتهما ، فمن هذه الجهة وقعت فى بعض النسخ من ديوان كشاجم زيادات ليست فى الأصول المشهورة منها وقد وجدتها كلها للخالديين بخط أحدهما) .

فهذا مثل من ادعاء السرى على هذين الشاعرين سرقة الشعر . وأما هجاؤه إياهما بسرقة من أشعاره خاصة فقد افتن فيه افتنانا . ورددده فى كثير من شعره وقد سلط الله عليه الثعالبى جزاء وفاقا فعقد هذا المؤلف الكبير فصلا فى اليتيمة لسرقات السرى من الشعراء وأفاض القول فيها . وأكتفى هنا بمثالين من شعره فى هذا الموضوع :

كتب الخالديان إلى أبى إسحاق الصابى الكاتب المعروف أنهما قادمان إلى بغداد فأنشأ السرى للصابى قصيدة أولها :

قد أطلقتك يا أبا إسحق غارة اللفظ والمعانى الدقاق
فاتخذ منقلا لشعرك تحميه مروق الخوارج المراق
كان شن الغارات فى البلد القفر فأنجى على سرير العراق
غارة لم تكن لسمر العوالى حين شنت ولا السيوف الرقاق
جال فرسانها على جلوسا لا أظلتهم سيوف العتاق

إلى أن يقول :

يا لها غارة تفرق فى الحو مة بين الحمام والأطواق
تدع الفارس السميدع بالما روبعض الأقوام عار باق
لو رأيت القريض يرعد منها بين ذاك الارعاد والابراق
وقلوب الكلام تخفق رعبا تحت ثنى لوائها الخفاق
وسيوف الظلام تفتك فيها بعذارى الطروس والأوراق
والوجوه الرقاق دامية الأبشار فى معرك الوجوه الصفاق
لتنفست رحمة للخدود السمر منهن والقدود الرشاق الخ

وله قصيدة أخرى فيها يخاطب أبا الخطاب والمفضل بن ثابت

الضبي وقد سمع أن الخالديين يريدان الرجوع إلى بغداد ، في عهد الوزير المهلبي يقول في مطلعها :

بكرت عليك مثيرة الأعراب ... فاحفظ ثيابك يا أبا الخطاب
ورد العراق ربيعة بن مكدم ... وعتيبة بن الحارث بن شهاب
أفعندنا شك بأنهما هما ... في الفتك لا في سحة الأنساب
جلبا إليك الشعر من أوطانه ... جلب التجار طرائف الاجلاب
فبدائع الشعراء فيها جهزا ... مقرونة بغرائب الكتاب
شنا على الآداب أقبح غارة ... جرحت قلوب محاسن الآداب
لا يسلبان أخا الثراء وإنما ... يتناهبان نفائس الألباب

إلى أن يقول :

نظرا إلى شعر يروق فقربا ... منه خدود كواعب أتراب
في غارة لم تنتظم فيها الظبا ... ضربا ولم تند القنا بخضاب
تركا غرائب منطق في غربة ... مسبية لا تهتدي لإياب
جرحى وما ضربت بحد مهند ... أسرى وما حلت على الأقتاب

ويصف شعره بهذه الأبيات وهو كثير الإعجاب بشعره ، مولع بالحديث عنه .

لفظ صقلت متونه فكأنه ... في مشرقات النظم در سحاب
وكأنما أجريت في صفحاته ... حر اللجين وخالص الزرياب
أغربت في تحبيره فروائه ... في نزهة منه وفي استلاب
وتطلعت فيه شيبة لم تشتمل ... من حسنه بصبا ولا بتصابي
وإذا ترقرق في الصحيفة ماؤه ... عبق النسيم فذاك ماء شبابي
يصغي اللبيب له فيقسم لبه ... بين التعجب منه والإعجاب
جد يطير شراره وفكاهة ... تستعطف الأحباب للأحباب

ثم يعود فيرثي لهذا الشعر الجميل الذي كتبه بماء شبيبته من غارة الخالديين فيقول :

أعزز علي بأن أرى أشلاءه ... ندبى بظفر للعدو وناب
أفن رماه بشارة مأفونة ... باعت ظباء الروم في الأعراب
إني أحفر من يقول قصيدة ... غراء تخدني غارة ونهاب

هذا موضوع فكه طريف يستطيع الأديب أن يتناوله بالبسط والشرح ليبين عما بين السري والخالديين من عداء ويتعرف أسبابه ، ويقضي فيما يدعيه السري عليهما من سرقة ، وفيما اتهم الثعالبي به السري من دس لشعرهما في ديوان كشاجم ، وعن الصلة بين أشعار هؤلاء الأربعة من شعراء القرن الرابع وما يتصل بهذا من قضايا أدبية خطيرة في ذلك العصر الزاهر .

ولم يقتصر اعتداء السري بشعره واتهام الناس بسرقته على ما بينه وبين الخالديين ، بل تناول غيرهما من الشعراء بهذه التهمة . ومن هؤلاء أبو العباس الناشئ الشاعر المعروف . قال السري عن الناشئ وادعى أنه كان جزارا :

أرى الجزار هيجني وولى ... فكاشفني وأسرع في انكشافي
ورقع شعره بعيون شعري ... فشاب الشهد بالسم الزعاف
لقد شقيت بمدحتك الأضاحي ... كما شقيت بضارتك القوافي
توعر نهجها بك وهو سهل ... وكدر وردها بك وهو صافي

ويصف قصائده بأبيات يقول فيها :

جمعنا الحسنيين فمن رياح ... معنبرة وأرواح خفاف

ثم يرجع إلى ذكر إغارة الناشئ على الشعر فيقول :

وما عدمت مغيراً منك يرمي ... رقيق طباعها بطباع جافي
معان تستعار من الليالي ... وألفاظ تقد من الأثافي
وشعر الشعر ما أبداه فكر ... تمخر بين كد واعتساف . الخ

وأما الموضوع الثاني من الكلام من السري الرفاء فموعدنا المقال الآتي إن شاء الله .

عبد الوهاب عزام

عالم الذرة
أو
الطاقة الذرية والقنبلة الذرية

تأليف الأستاذ العالم نفورد الحداد

كتاب صدر في وقته ، يشرح لك ما لا بد أن تعرفه عن الذرة ونواتها وفلقها وطاقتها وأثرها في مستقبل العلم ، وعن القنبلة الذرية وتجاربها وانفجارها وأثرها في مستقبل الإنسان .

يطلب من دار الرسالة . ومن المؤلف بشارع البورصة الجديدة رقم ٢ ومن سائر المكاتب الشهيرة وثمنه ٢٠ قرشاً بخلاف أجرة البريد .